صورة المرأة المصرية في رواية «الباب المفتوح»

دراسة تحليلية

مقدمة

لا تزال رواية الباب المفتوح (1960) للكاتبة الدكتورة لطيفة الزيات تمثل علامةً فارقةً لا في تاريخ الكتابة الأدبية عن المرأة المصرية وحدها بل في خط مسار الكتابات الأدبية عن المرأة العربية بصفةٍ عامةٍ. فقد استطاعت الكاتبة أن تعبر وبجرأة عن قضية تحرر المرأة وأن تكسر الأسوار الحديدية التي حاصرت (ليلى) بطلة الرواية وقوضت وطنًا أراد أن يجعلها تعيش على هامشه أسيرةً لفكره العقيم، بل جعلتها الكاتبة تشق طريقًا مضيئًا ولامعًا في المجتمع، تثبت فيه دورها الإيجابي الذي لا يقل شأنًا ولا قيمةً عن دور الرجل في بناء الوطن.

تقع أحداث الرواية في الفترة بين (1946–1956) وهي فترةٌ مهمةٌ ومؤثرةٌ جدًا في مجرى التاريخ المصري، وقد رسمت لنا الكاتبة صورة وطنٍ يُقاسي في هذه الفترة الحرجة من تياراتٍ أخلاقيةٍ واجتماعيةٍ وسياسيةٍ متباينةٍ آنذاك، تلك الفترة التي خرج فيها الشعب المصري الثائر منددًا بالإحتلال ومطالبًا برحيل الاستعمار عن أرض الوطن، ثم جاء بعدها إلغاء معاهدة 1936، ومعركة الفدائيين في القناة ثم حريق القاهرة، وقيام ثورة يوليو 1952 وجلاء الملك، والعدوان الثلاثي 1956م، وتنتهي الرواية بجلاء القوات البريطانية عن أرض الوطن. وقد نجحت الكاتبة في تصوير معاناة الفتاة المصرية في مجتمعٍ يمور بالصراع بين المحافظة على التقاليد والتمرد عليها ومعاناة الأمة في وطنٍ يترنح بين الاحتلال والاستقلال. (مجلة العلوم الانسانية الدولية، 2012: 19، 122)

أرادت الكاتبة وبشكلٍ واعٍ أن تقدم هذا النسج المتناغم بين حرية المرأة وحرية الوطن، وأن تؤكد أن المرأة لن تحصل على حريتها الكاملة إلا عندما يتحرر وطنها من سياج القهر والاستعباد وأغلال الظلم والاستبداد. وقد انعكس ذلك على رسم صورة البطلة التي ظهرت لنا في بداية الرواية فتاةً سجينةً في مجتمعٍ ذكوريٍّ، ينظر نظرةً دونيةً للمرأة ويئد أحلامها وطموحاتها البكر. وظلت هذه الشخصية في صراعٍ داخليٍّ مع نفسها وصراعٍ خارجيٍّ مع المجتمع إلى أن تزامن في النهاية تحرر شخصيتها مع تحرر الوطن.

يدرس هذا المقال وضع المرأة المصرية في الفترة المشار إليها في الرواية وأساليب القهر والقمع التي عاصرتها والنظرة المهينة والدونية التي ينظر بها المجتمع إلى المرأة. مجتمع يبكي الوالد فيه عندما تبلغ ابنته، ويدفن وجهه في كفيه خزيًا من العار الذي أصابه!! ثم يوضح المقال أيضًا كيف كان نضال المرأة وكفاحها من أجل الحصول على حريتها وإثبات وجودها في المجتمع المصري.

العصفور السجين في قفصه.. المرأة في المجتمع المصري

استطاعت الكاتبة أن تعبر في روايتها عن هموم المرأة وأوهامها ومشكلاتها ونظرات المجتمع البغيضة القاسية إليها، ومن خلال الرواية استطاعت الكاتبة أن تسلط أنوارًا باهرةً على هموم المرأة ومشكلاتها في المجتمع. وتضعنا بمهارة أمام نماذج متباينةً من النساء والفتيات لتقدم كل منهن فلسفتها في الحياة بشكل شرائح متناقضة ومتداخلة. ولكنها تتجمع جميعها في بؤرةٍ واحدةٍ لتعكس القلق العميق حيال وضعها في المجتمع الذي يتجاهل وجودها عن عمدٍ، والتساؤل المر عن المصير. فالرواية يمكن أن ينظر إليها باعتبار أنها سيرةٌ ذاتيةٌ للكاتبة أو بالأحرى تأريخٌ لنضال المرأة وكفاحها في سبيل الحصول على حريتها ونيل حقوقها هذا الذي لم يتحقق إلا منذ عهدٍ قريبٍ.

وقد قدمت الكاتبة العديد من الصور الحية التي تدين قسوة المجتمع وقهره للمرأة، فمعاينة دولت هانم لجسد ليلى التي كانت تمر عليه بيدها في بطء من أعلى إلى أسفل ومن أسفل إلى أعلى بغرض تزويجها، وكأنها «جاموسة معروضة للبيع» (م .ن، 34). ثم تقول دولت هانم بعد معاينة وفحص جسد ليلى «البنت لازمها فستان كويس يبرز كسمها ولازمها كورسيه يرفع صدرها ويشد وسطها.. البنت إن ماكانتش تلبس ما يبقلهاش سعر في السوق» (م.ن، 36). فهذه العبارة كفيلة أن تعبر عن نظرة المجتمع الدونية للمرأة باعتبارها جارية في سوق العبيد خلقت فقط لأن جل دورها في الحياة أن تنال رضا الرجل وتشبع رغباته الجنسية. وتقول ليلى «عندما تولد البنت يبتسمون ابتسامة تسليم، وعندما تكبر يسجنونها ويدربونها على فن.. فن الحياة! تبتسم وتنحنى وتتعطر وتترفق.. وتكذب وتلبس كورسيه يشد خصرها ويرفع صدرها لكى يرتفع سعرها في السوق وتتزوج..» (م.ن، 36)

والزواج مشكلة أخرى كانت تواجهها المرأة في مجتمع يرسم طبقات الظلام الكثيفة ولم يستطع نور أن ينفذ خلاله، فتقول ليلى لعديلة مدافعة عن حقها في الحب والزواج ممن تحب «أنت زي أمك؟ أفكارك زي أفكار أمك؟ أمك اتجوزت من غير حب لأنها ماكانتش تقدر تعمل غير كده، ماكانتش تقدر تختار، وإن اختارت ماتقدرش تتجوز اللي اختارته، أمهاتنا كانوا حريم، ملكية للأب بتنتقل للزوج، ولكن احنا مالناش عذر، تعليم واتعلمنا، وكل شيء فهمناه، وضروري نتحكم في مصيرنا، الحيوان نفسه بيختار». (م. ن، 69)

كما أن ازدواجية المعايير في المجتمع كانت من المشاكل التي عانت منها المرأة في المجتمع، فتقول سناء «والله احنا مصيبتنا سوده، على الأقل أمهاتنا كانوا فاهمين وضعهم، أما احنا، احنا ضايعين، لا احنا فاهمين إذا كنا حريم ولا مش حريم، أم كان الحب حرام ولا حلال، أهلنا بيقولوا حرام وراديو الحكومة طول الليل والنهار بيغنى للحب والكتب بتقول للبنت روحي أنت حرة .. وإن صدقت البنت تبقى مصيبة، تبقى سمعتها زفت وهباب .. بالذمة دا وضع؟ بالذمة احنا مش غلابة؟!» (م. ن، 71).

ليلى .. بطلة الرواية ومحورها

تعد شخصية ليلى بمثابة مرآه عاكسة لما يدور في خيال وقلب وعقل الكاتبة لطيفة الزيات، التي تعبر بواسطتها عن هواجسها وأحلامها ورؤياها. فهي نسمة ربيعية حارة فيها الحزن الدفين وفيها رعشة الفرح .. فتاة تواجه مجتمعها لتحقق هدفًا نابعًا من أعماق نفسها، ينمو في قلبها كزهرة عملاقة يومًا بعد يومًا، تقودها خطاها ومن عرفتهم بصورة قدرية لا مهرب منها وتجعلها تصطدم بحقائق المجتمع وحقيقة نفسها، وكلما كانت تنجح في الإمساك بخيط من الحرية تجده طار كفقاعة من الهواء بين يديها، تاركة إياها فريسة لصراع جديد ولهدف جديد، ولعادات وتقاليد قاسية قاتلة، تحكم قضبانها حولها بإحكام.

برعت الكاتبة في رسم شخصية (ليلى) بطلة الرواية ومحور أحداثها، فقد حولتها من جسد جامد فيه تتولد الأفكار وتخمد دون انبعاث إلى جسد ينبض بالروح والحياة ... بل أنبتت لهذا الجسد الحي جناحي فراشة .. ولونتها بألوان قوس قزح .. وتدرج شخصيتها من كونها دمية في يد المجتمع الذكوري الذي جعلها تنقاد إليه في كل عاداته الرجعية وأفكارة السلبية ونظرته الدونية للمرأة إلى أن تصل بها إلى شخصية المرأة المثالية التي تناشد بها الكاتبة مثالاً يحتذى، وهذا بعد أن زينت عقلها بالحكمة والنفاذ والرؤية الثاقبة .. وشخصيتها بالقوة والشجاعة والمثابرة، والتمرد والكبرياء، وروحها بالإيمان والأمل وحب الحياة ... فانطلقت تطير في سماء الحرية دون خوف عليها من الوقوع أو الفشل. فلم يعد هناك باب موصود تصطدم به فيصدم أمالها ويحطم طموحاتها.

كانت ليلى في كل صباح تستيقظ لتستقبل يومًا جديدًا .. يوم يلتمع على أشجاره ندى الفجر .. وبداخلها تحدٍ كبير للطيران بعيدًا والتحليق في السماء العالية. لكن سرعان ما تتلاشى هذه الأحلام وتندثر عندما تستشعر جناحها المكسور ورأسها المنخفض .. فتدرك حقيقتها المجروحة المشروخة... أنها أنثى لم تخلق للتحليق بل للسجن داخل القفص.

ولكن حلم طيران الفراشة لم يمت بداخلها .. وإن كان قد قتله المجتمع ألف مرة ظاهريًا .. لكن بتطور تجسيد الشخصية نجد أن مشاركتها في المظاهرات كانت أول تحليق للسماء .. كانت خفقة جناح العصفور عند ظهور الزغب .. والنشوة الأولى واحتراق الجسد بالحماسة والأمل .. واكتشاف دفء الطريق بحب الوطن وحلاوة التعبير عن هذا الحب، ولكن مالبثت ان احترق الجسد بألسنة نيران المجتمع وسطوته في حرمان المرأة من أن يكون لها صوت.

فقد كان ضرب والدها لها إثر مشاركتها في المظاهرات كفيلاً أن يفقدها إنسانيتها .. وقالت "غلطانة، فعلا غلطانة عبرت عن شعوري زي ما أكون إنسان ونسيت، ونسيت إني مش إنسان، نسيت إني بنت ... ست" (م.ن، 50) فحبست نفسها في حجرتها كطائر جريح متخبط يضرب رأسه في أربعة جدران.. محاولاً عبثًا أن يجد نافذة من النور .. أو كغريقٍ في بحر متلاطم الأمواج يفتش عن طوق النجاة ... وما تتنفسه من هواء مخنوق. حيث أحست أنها ليست إنسانة بل «ممسحة أحذية».

وقد وقعت ليلى في هوة التردد والمعاناة التي جعلتها تبتعد عن نفسها دون أن تعرف كيف تبتعد، كانت كل

محاولة تقودها من سراب إلى سراب، عصام كان أول من انتفضت دقات قلبها حبًّا له، ولكن حبه كان اشتياقًا للجسد وانكسارًا للروح .. فذهبت وراء صديقتها عديلة التي أيدت ما يردده المجتمع من ظلم وقهر للمرأة.. وإن كانت كلمات تتوارى تحت عباءة الفضيلة والأصول. ثم نجد ليلى ترمى نفسها على عتبة ظلال الدكتور رمزي.. وكادت أن تغرق في كومة من الرمال الخادعة تطوح بها إلى نهاية قد تكون أشد قسوة من نهاية انتحار صفاء أو خيانة ابنة خالتها لزوجها. فليلى فتاة بريئة تواجه المجتمع القاسي بنظرة قلق ودمعة حزن متجمدة وذراع لا تعرف كيف تصرفها كي تدافع عن نفسها.

ليلى وإشكالية التطور العُمرية

وقد صاحب تطور شخصية ليلى ثلاث مراحل ... مرحلة الطفولة والمراهقة والأنوثة، وفي كل مرحلة كان هناك رجل وبطل تستند عليه، وتعتبره البوابة التي ستنقلها إلى عالم الحرية والانطلاق، لكن في كل مرة كانت تُصدم بأن الرجل ما هو إلا باب مغلق .. سجَّان يكبت مشاعرها ويزيدها حرمانًا على حرمان .. ويضيق دائرة السجن عليها ويحكم إغلاق الباب على حريتها المنشودة. فكان الرجل في حياة ليلى هو الذي يقودها من رواق إلى رواق ... ومن ممر إلى ممر دون أن تدرك إلى أين تسير، وإلى أي هدف ستصل، فكانت تابعة إما لأب أو لأخ أو لحبيب أو لخطيب.

وصفت لطيفة الزيات شخصية ليلى في بداية الرواية قائلة "هي طائر يحلق في السماء عاليًا فوق كل الطيور ويعود إلى العش بالحب لطيوره الصغيرة .. يحيطها بجناحيه ويدفئها، وهي طفلة تائهة في الطريق بين غرباء ينظرون إليها ولكنهم لا يرون دموعها وهي مدام كوري، وبطل يحطم قضبان السجن لينقذ شعبه من الاستعمار وهي كل هذا وأكثر من هذا أو هي على الأقل معهم، فقد كان بها التحدى وإحساس بإثبات الذات والتفوق .. كان أول تحدٍ تواجهه هو أن تتفوق على زميلتها نفيسة في مادة الحساب ... حتى حققت نصرًا عليها وأثبتت أنها ذكية «وأنها تستطيع أن تسبق نفيسة في الحساب» (م .ن، 20)، فليلى منذ صغرها وهي تتمتع بروح القوة والمثابرة والتحدي علاوة على عشقها الدفين للحرية والانطلاق.

وعندما وصلت ليلى لسن البلوغ اعتقدت أن أباها سيفرح لوقوفها على أعتاب عالم الأنوثة كما فرح عندما بدأ الشعر ينمو في ذقن أخيها .. ولكن اسود وجه أبيها وهو كظيم، وأحست ليلى أن الكارثة حلت بجسدها وأن عليها أن تدفن نفسها من الخزي والعار الذي حل بها لكونها أنثى «وسحبت ليلى الغطاء على جسمها وعلى وجهها حتى طرف رأسها» (م.ن، 21) بل على مشاعرها الوليدة التي وئدت في مهدها. «وفهمت أنها ببلوغها دخلت سجنًا ذا حدود مرسومة وعلى باب السجن وقف أبوها وأخوها وأمها، والحياة مؤلمة بالنسبة للسجان والسجينة، السجان لا ينام خشية أن ينطلق السجين، خشية أن يخرج على الحدود، والحدود محفورة حفرها الناس ووعوها وأقاموا من أنفسهم حراسًا عليها، والسجينة تستشعر قوىً لا عهد لها بها قوى النمو المفاجيء، ورغبة جارفة في الانطلاق، قوىً في جسمها تطوقها الحدود، وقوىً في عقلها تشلها الحدود، حدود بلهاء عمياء صماء». (م.ن، 21)

حتى خروجها إلى المجتمع ودراستها بالجامعة كان مسموحًا لكن في إطار فكر المجتمع المتحجر المقيد

لحرية المرأة الذي لا يتوانى لحظة في كبت وإحجام صوتها ووأد حقوقها .. فحدد المجتمع كل مشاعر الحرية المولودة بداخلها .. واضعًا قضبانًا من الحديد أمام كل ما يمكن لها أن تفعله من أجل إثبات كيانها في المجتمع.

وكان مشهد ليلى عند الشاطىء وقتما كانت تجدف بعنف وكأنها موج يحن إلى الشاطىء، فتحن ليلى بين لحظة وأخرى إلى قوتها الداخلية الراسخة في أعماق نفسها، تلك القوة التي يهشمها المجتمع قبل أن تولد، طابعًا على شخصيتها الضعف وقلة الحيلة مثلها مثل أي امرأة تولد في هذا المجتمع. وحتى وإن حولها المجتمع إلى تمثال أصم فكان قلبها مازال ينبض بروح الإدارة والأمل، ولهذا كانت في حاجة إلى شدة الإيمان بذاتها، وإدراكٍ عميقٍ لمكامن قوتها كي تستطيع تحطيم التمثال العتيد التي صُبَّت في قالبه.

وتتطور شخصية ليلى أكثر وأكثر إلى أن تصل إلى أوج نضجها عندما تشارك شعب بورسعيد في المقاومة ضد الإنجليز، ووقفت جنبًا إلى جنب مع الرجل .. ترفع السلاح في وجه العدو.. تساعد في نقل المصابين إلى عربات الإسعاف .. ورغم تلقيها الإصابات لم تعزف عن التعبير عن وطنيتها ورغبتها المستميتة في قتال العدو. أرادت الكاتبة أن تؤكد أنه ليس في قانون المقاومة رجل أو أنثى، كلنا أبطال مهما كانت موقفنا .. مادام النجم يضيء في أعماقنا .. ومادمنا نريد لشمسنا نحن أن تسطع مهما كان الظلام كبيرًا.

الشخصيات النسائية في الرواية: تجليات مختلفة لواقع عقيم

أما عن الشخصيات النسائية المرسومة في الرواية بدقة بالغة وعناية شديدة، فنجد أن كلاً من عديلة وسناء تمثلان الصراع الداخلي الذي تحياه ليلى طوال الرواية؛ ألا وهو صراع بين التحجر والتحرر .. وكانت عديلة هي رمز لهذا التحجر الفكري والرضوخ التام لأعراف المجتمع وتقاليده الباليه، فلأن الحرية من نصيب الرجل فقط دون المرأة، فهي بذلك تضمن لليلى بقيمها ونصائحها الركون والركود وعدم المواجهة". (غزول 120،1993)

وعلى النقيض، نجد أن سناء قد عارضت كل التقاليد والأعراف المتوارثة المهترئة بشجاعة ، فنجدها تحب وتختار من ستتزوجه، ولم تهتم أبدًا بنظرة المجتمع إليها ونظرة والد زوجها محمود الذي قال عند معرفة رغبة محمود الزواج منها «والله والله لو كانت دي بنتي لكنت قتلتها، قتلتها قتل" وكما وصفتها لطيفة الزيات "فكانت معتزة بنفسها... وكان الإعتزاز ينبعث من إيمان مطلق بصحة تصرفاتها... كانت تطوى ضلوعها على عزيمة جبارة وعلى قدرة عملية... كانت تعرف ماذا تريد وكيف تصل إلى ما تريد وكيف تحتفظ به»، (م.ن، 201) ولهذا كانت معترضة على خطبة ليلى للدكتور رمزى لأنه نموذج للأفكار البالية.

نأتى لصور شخصيات نسائية أخر في الرواية مثل «دولت هانم» و«سامية هانم» و«سنية» وهن يمثلن طبقات من المجتمع الزائفة العارية التافهة التي كان ينظر إليها في ذلك الوقت على أنها الطبقات الراقية ..«وأي حياة هذه؟ إنها حياة لا تستحق أن يحياها الإنسان، هذه الحياة التافهة التي يسيطر عليها رجال تافهون ونساء تافهات مثل سامية هانم وأختها دولت هانم..» (م. ن، 31) هذا المجتمع الذي يهتم بالمادة على حساب الروح دهس المرأة بسطوته وكبريائه، فدولت هانم وسناء تزوجان ابنتيهما لرجلين لا يملكان

غير المال الوفير، وعندما ضاق العيش بالابنتين وفكرتا في الطلاق لتحررا من هذا الكابوس الدائم، صدت والدتهما الباب في وجهيهما حيث أن الطلاق ما هو إلا خرقٌ للأصول. فما كانت النتيجة إلا أن انتحرت صفاء ابنة دولت هانم وكأنها تريد أن تعبر بهذا الانتحار عن رفضها الشامل للمجتمع... ولكن المجتمع أصم أذنيه لهذا التعبير، أما جميلة ابنة سنية فقد أصبحت زوجة خائنة لأنها تزوجت رجلاً غنيًّا لم تحبه يومًا.

أما والدة ليلى فكانت صورة سلبية وضعيفة تعكس قيم المجتمع المهترئة في تربيتها لليلى، فهي تخشى زوجها، وفي البيت، «تمشي على أطراف أصابعها وتلتفت حولها بعينين قلقتين لتتأكد أن كل شيء معدٌ كما ينبغى لا تجرئي أن تعارضيه في أى قرار، بل تطيعينه طاعة عمياء. فدائمًا ترفع شعار "اللي يمشي على الأصول مايغلطش» أصول سقتها المرار وربما تتضرر منها في قرارة نفسها لكنها لم تمنع تطبيقها على ابنتها.

الرجل في حياة المرأة: عُكَّاز تستند عليه أم حائط هشٌّ لا يتحملها!

ننتقل إلى صورة علاقة المرأة بالرجل، وكيفية تأثير الرجل على المرأة الذي كان واضحًا في رسم شخصية ليلى على وجه الخصوص، والعلاقات المتباينة بين الرجل والمرأة في الرواية بشكل عام، «في لحظة من اللحظات تعترف ليلى أنها حتى وإن كانت قوية في بعض المواقف ولكنها قوة لا تنبع من داخلها بل تأتي من الخارج» (م. ن، 57). فترى ليلى أن المجتمع بتقاليده البالية وبأفراده يحاول محاولات مستميتة في أن يمحو شخصيتها وأن يهشمها فينجح في جعلها هشة ضعيفة من الداخل ولهذا تلجأ ليلى دومًا إلى الآخرين لتحتمي بهم ولتستمد قدرتها على الفعل منهم أو تحديدًا من رجال إن فقدتهم تفقد هويتها إلى الأبد فتصبح لا شيء، فهي في مرحلة الطفولة تلجأ إلى أخيها محمود فهو رمز الفدائية في قصة نضاله مع قوت الاحتلال، ثم إلى حبيبها في مرحلة المراهقة عصام، وفي المرحلة الجامعية تلجأ إلى الدكتور رمزي أستاذها في الجامعة وخطيبها. «ولكن هؤلاء الرجال وبسبب وجودهم في مجتمعٍ يعاني من فجوة بين القول والفعل، يعانون من ازدواجية التفكير» (مجلة العلوم الانسانية الدولية، 2012: 19، 127)؛ لذلك كان لهم التأثير السلبي والمحطم على تكوين شخصية ليلى.

فعندما كانت ليلى طالبة في المدرسة، كان الانصياع الكامل لوالدها، وكان خروجها في المظاهرات لتشارك الرجل في التعبير عن رفض الاستعمار، هو خروجٌ عن طاعة أبيها وعصيان للأصول والعادات والتقاليد، وقد نالت من الإهانة والضرب من والدها، الذي لم تأخذه بها شفقة ولا رحمة، فكان تأثير والدها سلبيًّا جعلها تشعر أنه سلب إنسانيتها حيث قالت «أنا اتقتلت خلاص انتهيت، بعد اللي حصل النهاردة كل حاجة اتغيرت ما بقتش إنسانة بقيت ممسحة جزم». (م. ن، 49)

وعلى الرغم من أن أخيها محمود هو «الشخص الوحيد الذي تنتظره ليلى بفارغ الصبر كي يأتي لها بنسمات الحرية من خارج البيت، فقد كانت ترى الدنيا من خلاله» لكننا نجد أن محمود يتشدق بمجموعة من المبادئ والأفكار في حين يقف ما تربى عليه حائلاً دون أن يقوم بالعمل بها. فهو يدافع عن حق الفتاة في الحب واختيار شريك الحياة بينما لا يقبل أن تكون هذه الفتاة أخته. ولهذا فإن أخوها كان نموذجًا متكررًا

لازدواجية المعايير.. أحد مشاكل وهموم المرأة في ذلك الوقت.

وكان حب عصام لليلى حبًّا جسديًّا.. وفي محاولة عصام الاعتداء عليها بشهوانيته المعهودة كان يقول لها «أنت بتاعتي أنا.. ملكى أنا... فاهمة؟» (م. ن، 130) وترد عليه ليلى في ثورة عارمة «أنا مش ملكك ولا ملك أي إنسان... أنا حرة... فاهم؟» (م. ن ،13). وعندما علمت ليلى بما يفعله عصام مع الخادمة.. بدأت أعمدة الحب الثابتة في قلبها بالاهتزاز، ليس تجاه عصام فقط، بل تجاه مفهوم الحب العاطفي بأكمله. ونرى أن كل ما كانت ليلى تحيا فيه من استقرارٍ عاطفيٍّ ومشاعر حبٍ بريئةٍ ليس إلا مظهرًا زائفًا، وأن عالم الرومانسية الحالمة والأحلام الوردية التي كانت تكنها لعاصم تحولت إلى نارٍ متأججةٍ تحاصرها وتلهب حبها في مهده. لقد كان باب انتقالها إلى عالم الأحلام مصنوعًا من الزجاج الهش، يكفي لحجر صغير أن يحطمه. فقد «تحدت أباها وتحدت أمها وتحدت تقاليدهم وأصولهم وأحبت» (م. ن، 150) فأحست أنها بحاجة إلى التمسك بالتقاليد التي طالما كرهتها وأرادت تحطيمها. ولهذا كانت تجربة حبها لعصام وصدمتها فيه مؤلمةً لدرجة دفعت بها إلى رد فعلٍ مأساويٍ، وفضلت العزلة الاختيارية التي وضعت نفسها فيها. «ليلى انعزلت. انعزلت حبيسة وراء (الأنا) تنكأ جراحها. وكأن الدنيا كلها قد تركزت في هذه (الأنا). ولم يعد لليلى هم إلا أن تحميها من عدوان العالم الخارجى. لقد استندت إلى أمها، إلى أصولها، إلى تقاليد الناس من حولها، ورأت الحياة من خلال عيني أمها ضيقة لا تتجاوز الجدران الأربعة التي تعيش بها، مخيفة يتحصن ضدها الإنسان، ويتصرف جهده ليتحاشاها لا ليحياها، ويتسلح في ذلك بالأصول، يتكلم بالحساب، وينفعل بحساب لكي لا يتعب ولكي لا يتألم». (م. ن، 176)

وفي علاقة ليلى مع الدكتور رمزي الذي خطبت له دون أخذ رأيها، كتبت لطيفة الزيات «لمحت جدارًا امتد لها ظله فجلست في ظل الجدار لا تفكر وارتكنت عليه وارتاحت.. وشعرت أنها بخير طالما ارتكنت على الجدار، وطالما امتد لها ظله، وكأن الظل يمدها بضخامة كضخامة الجدار وبقوة من قوته وبصلابة من صلابته». (م. ن، 236) فكان الدكتور رمزي يمثل لليلى جدارًا عاليًا يحجب عنها الرؤية، وضوء الشمس ونسيم الأمل، فهو نموذج آخر من الأفكار المتحجرة والتقاليد البالية التي من شأنها قهر المرأة وسلب حقوقها في الحياة. فيقول لليلى التي أراد أن يحولها إلى بغبغان يردد كلامه دون تفكير أوتحليل «فيه ناس كتير من اللي بيسموا نفسهم مثقفين بيستهينوا بالأصول وبالتقاليد بتاعتنا.. ولكن ضروري تعرفي أن الأصول دي هي اللي بتربطنا بالأرض، ومن غيرها نبقى زي الشجرة اللي من غير جذور، شوية هوا تجرفها، وتوقعها كمان». وكان يدفعها إلى أن تجري هائمةً وراء ظله دون أن تدري أى طريق تمضي فيه... فكل الطرق وراءه تساوت طالما الظلام يخيم عليهم. وكان يتفنن في إعطاء الأوامر لليلى وهي مطيعة عمياء لأوامره، كما يقود الراعي نعجة مستسلمة. وكانت النتيجة أنها «تبلدت حواسها وكأنها تحت تأثير مخدر دائم ولم تعد تنفعل بشىء» (م. ن، 292)

أما علاقتها بحسين فكانت العلاقة الوحيدة التي جعلت من ليلى شخصية قوية بها انسجام رائع وتوافق بَيِّن بين أغوار نفسها وأصداء المجتمع. فحسين هو المرفأ الروحي الذي تأوي إليه نفس ليلى التائهة، فهو من مس سهم الحب قلبه حينما رأى ليلى أول مرة، وإذا كان حب عصام هو حب شهواني لجسد ليلى، فحب

حسين كان حبًا لروحها. ولهذا كان دائمًا يرشدها الى مستقبل تحاك له خيوط جديدة، ويشجعها على أن تتغير داخلها حتى ترى التغيير الحقيقى. «ولا أريد لك أن تستمدي ثقتك في نفسك وفي الحياة مني أو من أي إنسان. أريد لك كيانًا مستقلاً وثقةً تنبعث من النفس لا من الآخرين». (م. ن، 210).

وكان دائما يحاول أن يقنعها أن الأمل هو النافذة الوحيدة، والباب المفتوح الذي تستطيع بواسطه أن تخرج إلى آفاق أحلامها الواسعة مع الإنسان الذي يختاره قلبها وعقلها وروحها ليكون زوجًا وشريك حياتها، يتقاسمان معًا مشوارهما في الحياة.

لكنها كانت تعيش طور التردد وانعدام الوزن، والتخبط البين في التحرر من الركود في أعماق السجن. تغلُّ يداها قيود المجتمع وأصوله فيسافر حسين دون أن تودعه كما وعدته حفاظًا على الأصول وخوفًا من تكرار تجربة الحب التي أوجعتها، فيرحل حسين بعيدًا، بينما هي راضخة وهي ترى حلمها يبتعد عنها رويدًا رويدًا على صورة سفينة تحمل رجل الأحلام ليطويه عنها ضباب الفجر.

ولكن حسين ظل يراسلها بخطاباته ويساعدها ويرشدها إلى الطريق الصحيح حيث كان يقول لها إنها عندما تتظاهر بما ليس فيها وتنصاع للتقاليد فإنها تتحول إلى «مخلوقة بليدة معدومة الحس والتفكير». (م. ن، 210)، ولكن عندما تندمج مع الجموع فسوف تتذوق حلاوة الحب الحقيقي، الحب الكبير الذي له مكانه السرمدي في القلب، «حب الوطن» وكانت هذه الكلمات من أكثر الكلمات تأثيرًا على شخصية ليلى «فانطلقى يا حبيبتي، إفتحي الباب على مصراعيه واتركيه مفتوحًا».

وبقي حسين يحثها بجدية على مواجهة أزمتها بشجاعة قائلا: «عشان نوصل للبر، ضروري نواجه الموج والبحر... وعلى البر حتلاقي الحاجة اللي ضاعت منك، حتلاقي نفسك، حتلاقي ليلى الحقيقية» (م. ن، 183)، وبالفعل تجد ليلى نفسها في نهاية الرواية في خضم المقاومة الشعبية ضد العدوان الثلاثي بعد أن استطاعت أن تمزق خيوط الشرنقة التي أحكم المجتمع نسجها حولها «وهي تستطيعه، كل شيءٍ تستطيعه، لا شيء أصبح الآن مستحيلاً» (م. ن، 343) وقد تزامن تحرر ليلى مع تحرر الوطن وتمزيق الناس أكفانهم التي كانوا يعيشون فيها «ويحسبون أنها تحميهم وتقويهم، بينما هي في الواقع تشل خيالهم وعقولهم وقدراتهم». (م. ن، 132)

خاتمة مغلقة للباب المفتوح

استطاعت لطيفة الزيات بمهارةٍ فائقةٍ أن تربط بين تحرر المرأة واستقلال الوطن، وكأنها تربط بين قطرة الدم الصغيرة وشريان الحياة الواسع، فقد كانت البراءة المضطهدة، وعبثية وأد الأحلام، والحرية المداسة بالأقدام، تمثل الأمل بيومٍ قريبٍ تنكسر فيه الأغلال كلها، كل هذه المعاني المدهشة دفعت الكاتبة لتقديم رواية الباب المفتوح.

وكانت بطلة الرواية (ليلى) ترمز للمرأة المصرية في المجتمع الشرقي، فهي نبتٌ متميزٌ وفريدٌ في حديقةٍ كلها زهورٌ ذابلةٌ وأوراقٌ قد تخشبت. وقد أجادت الكاتبة تصوير نظرات الأمل والتحدي في ليلى، والقبضات

المحمومة التي ترتعش غضبًا فيها والصدور التي تتنفس باحثة عن مخرج النجاة، والحب المجهض القاتل المسموم، والحب الوليد كحمامة بيضاء. فذلك الحب رغم كل هذا الإحباط وخيبة الأمل الذي أصاب ليلى، بعث ليلى المدفونة في رماد قهر مجتمعها وحولها إلى عملاقٍ لا يعرف اليأس.

وقد صورت لطيفة الزيات مشاعر الحب عند المرأة، فبرعت في رسم مشاعر رقيقة حساسة تعبر بها عن ما تكونه المرأة عندما تحب، فلطيفة الزيات تملك بين أصابعها أقواسًا سحريةً تعزف عليها أنغامًا شاعريةً تجعلك تنسى نفسك وترقص، كانت أجملها قصة حب حسين لليلى وحبه الأكبر للوطن. ذلك الحب الذي غير من شخصية ليلى وجعلها تظهر في النهاية بمظهرٍ جديدٍ وروحٍ جديدةٍ بإنسانيةٍ جديدةٍ.

فرواية الباب المفتوح هي قصيدةٌ سيمفونيةٌ مركبةٌ حول وطنٍ وجيلٍ وعصرٍ قهر المرأة وسلب حريتها، وصادر وجودها، وعزم على استعبادها للأبد. لكن الكاتبة جعلت من روايتها لوحةً حيةً لأخلاق وعواطف مجتمعٍ بأكمله وكأنها صرخةٌ من القلب، كسرت بها حاجز المجتمع. لقد كانت الكاتبة تنظر بحسرة إلى مشاكل المرأة، تلك المشاكل التي تشع في عيونها والتي تنادي وتصرخ أن يهتم أحد لأمرها أو أن يعرضها بحنان وثقة وتفهم. وكانت كل أملها في المستقبل، فالمرأة لا يمكن لها الانعزال في الصومعة بل يمكنها المشاركة بإيجابية في حل مشاكل الحياة والمجتمع.

المصادر والمراجع

- الزيات، لطيفة ، (2003) رواية الباب المفتوح، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

- غزول، فريال فجبورى، (1993) ايديولوجية بنية النص، لطيفة الزيات نموذجا، مجلة فصول، القاهرة، المجلد 12، ش1، ربيع.

- مجلة العلوم الانسانية الدولية، الفتاة المصرية في رواية "الباب المفتوح" (دراسة في البناء الروائى)، (2012م) العدد19.